


علماء العرب

للفتيان والفتيات




# ابن خلدون

علماء العرب

للفتيان والفتيات

٤

# ابن خلدون

الطبعة الأولى
١٩٧٦


المؤسسة العربية للدراسات والنشر
ص.ب. ٥٤٦٠ - بيروت - لبنان



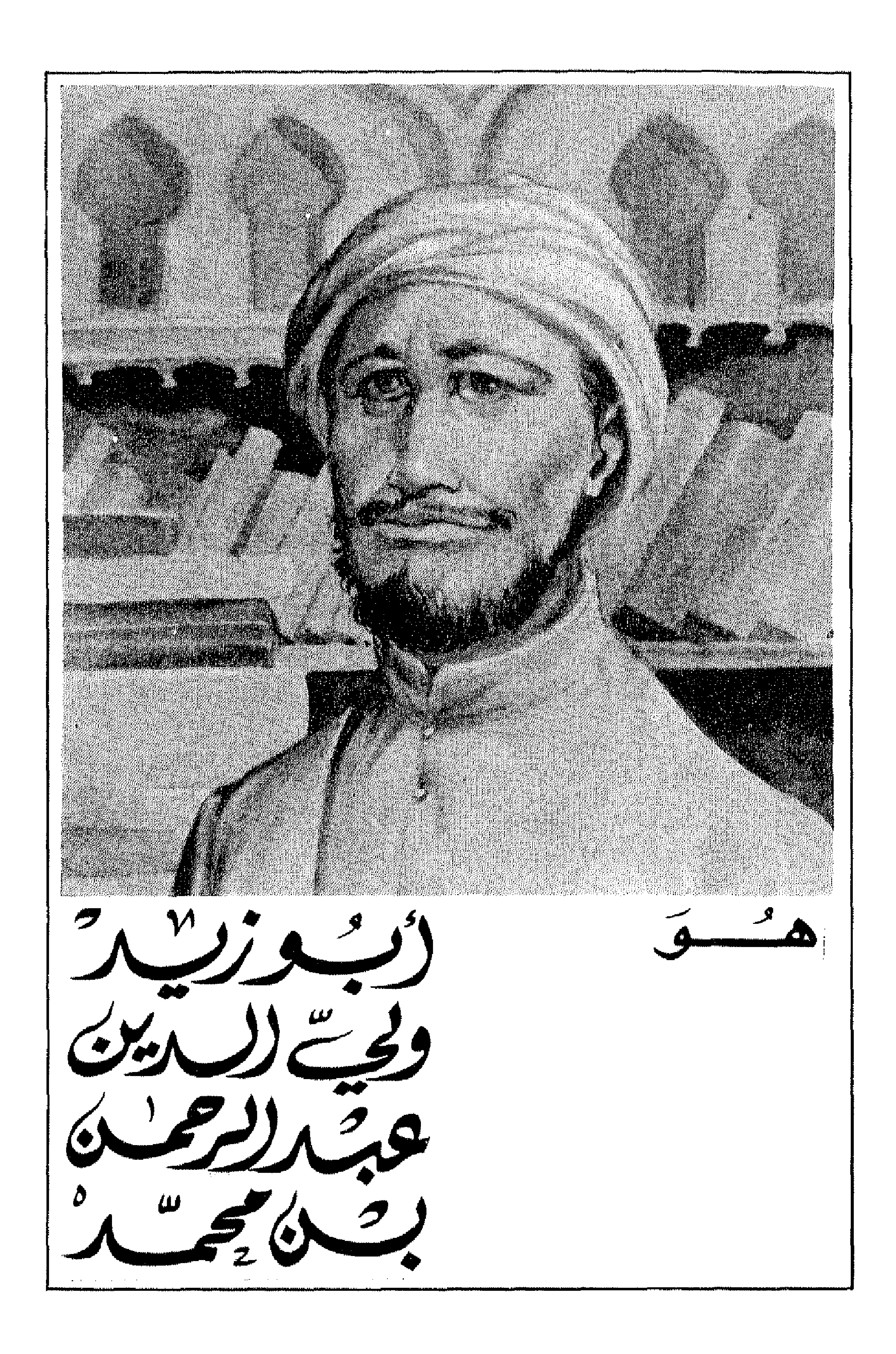

علماء العرب
للفتيان والفتيات




# إبن خلدون

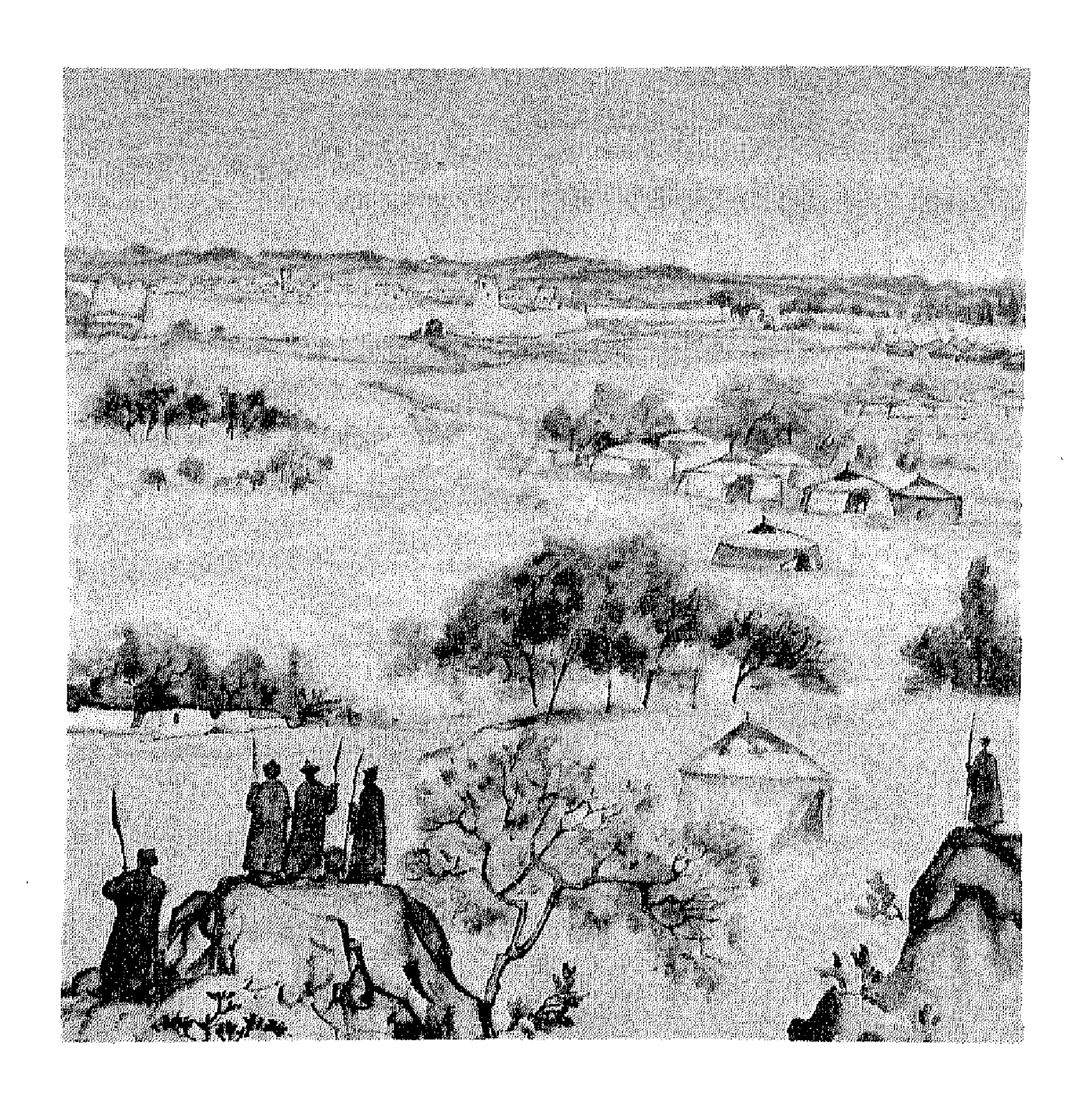
## "مؤسس علم الاجتماع"

اعداد : راجي عنايت
رسوم : هبة عنايت

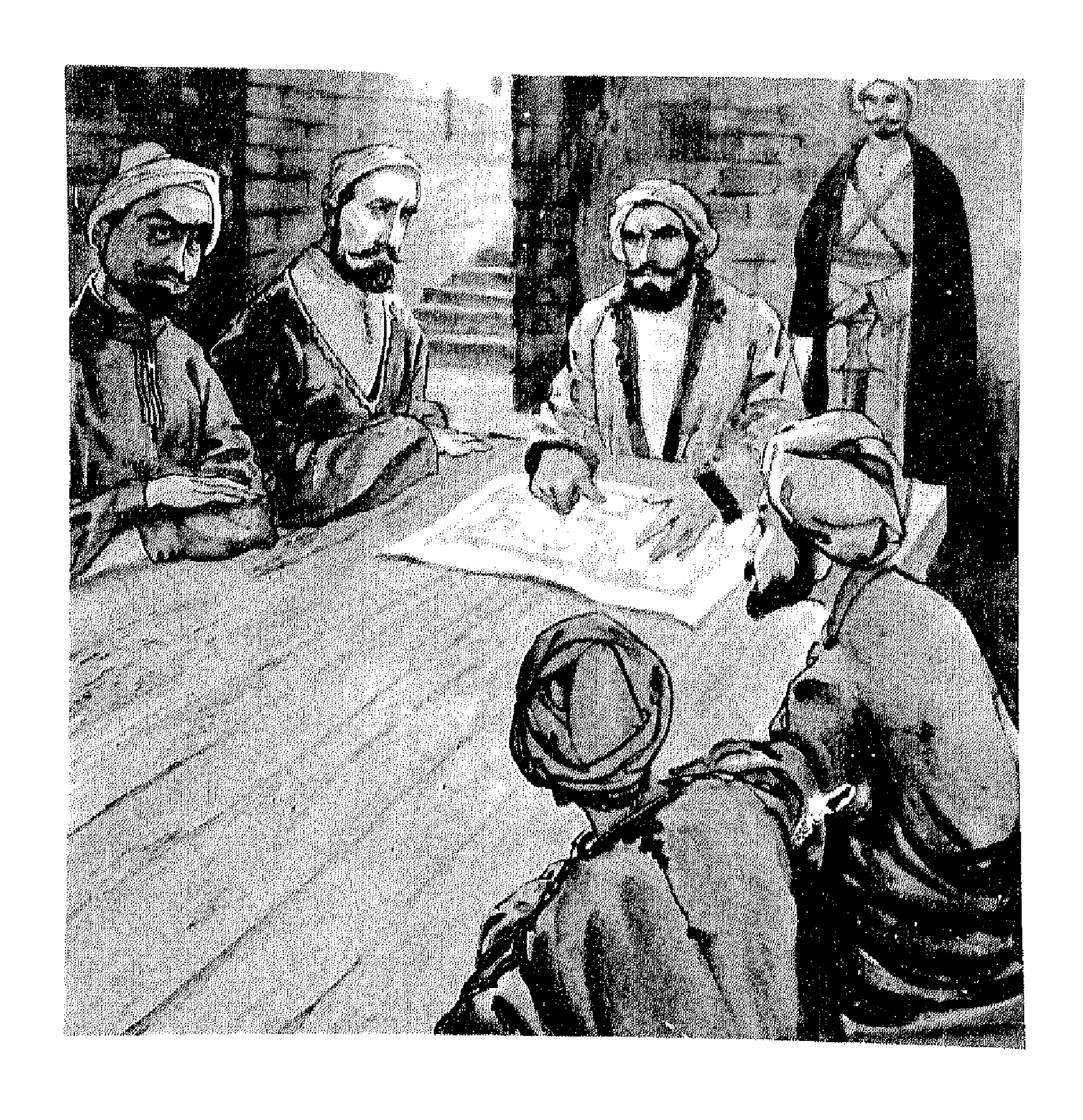

هو
أبو زيد
ولي الدين
عبد الرحمن
بن محمد



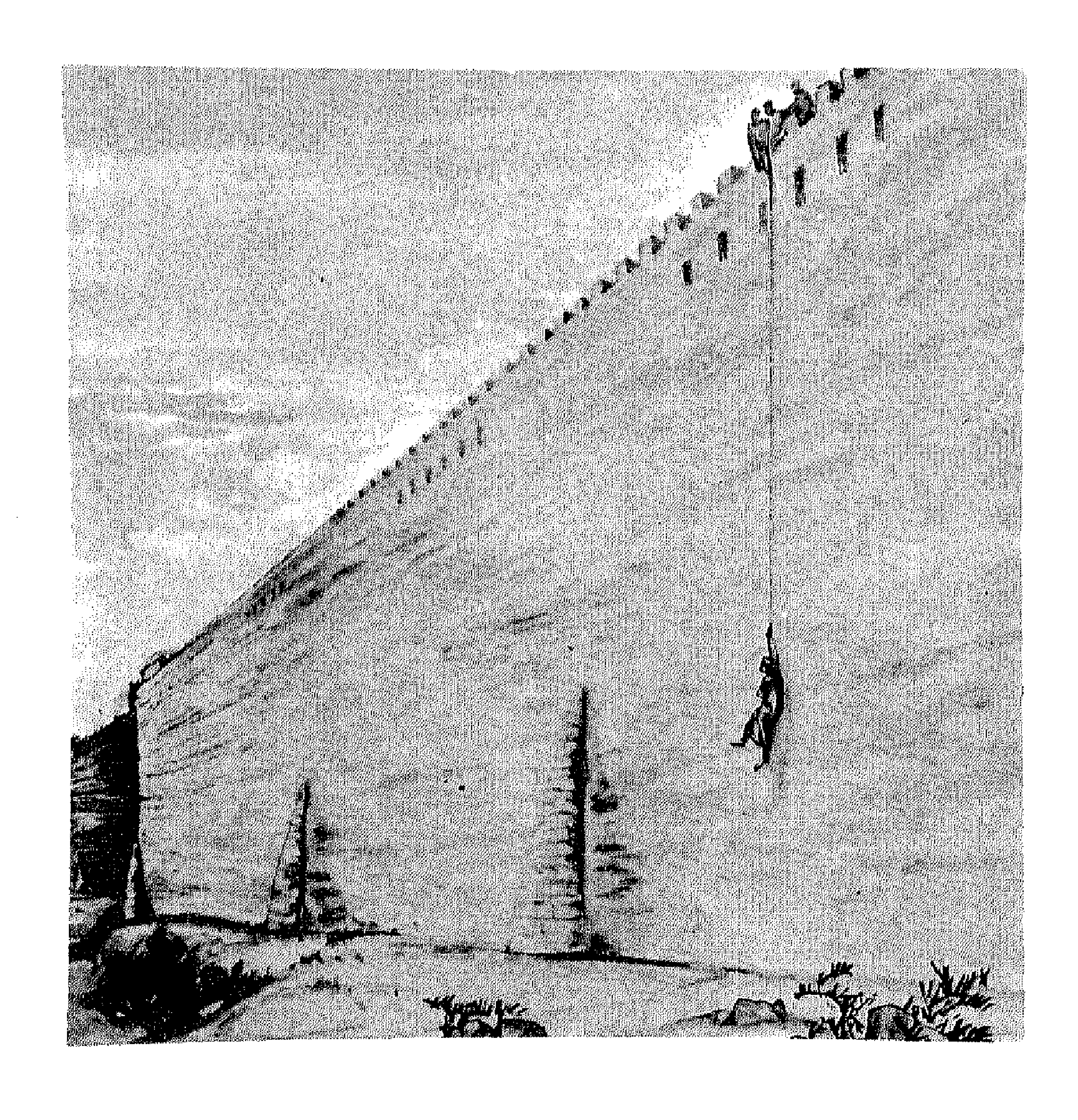
وصل الغازي التتري تيمورلنك الى مدينة حلب ، فاستولى عليها ، ثم استباحها ، واعمل فيها التخريب والتدمير وسفك الدماء ، بما جعله مستحقا للقب الذي عرف به ، وهو « امير الدمار » .



وما ان انتهى من حلب ، حتى توجه الى دمشق . حاصرها ، واخذ بخبرته الحربية ، يتحسس قوة جيشها ومناعة استحكاماتها ، في مناوشات صغيرة .



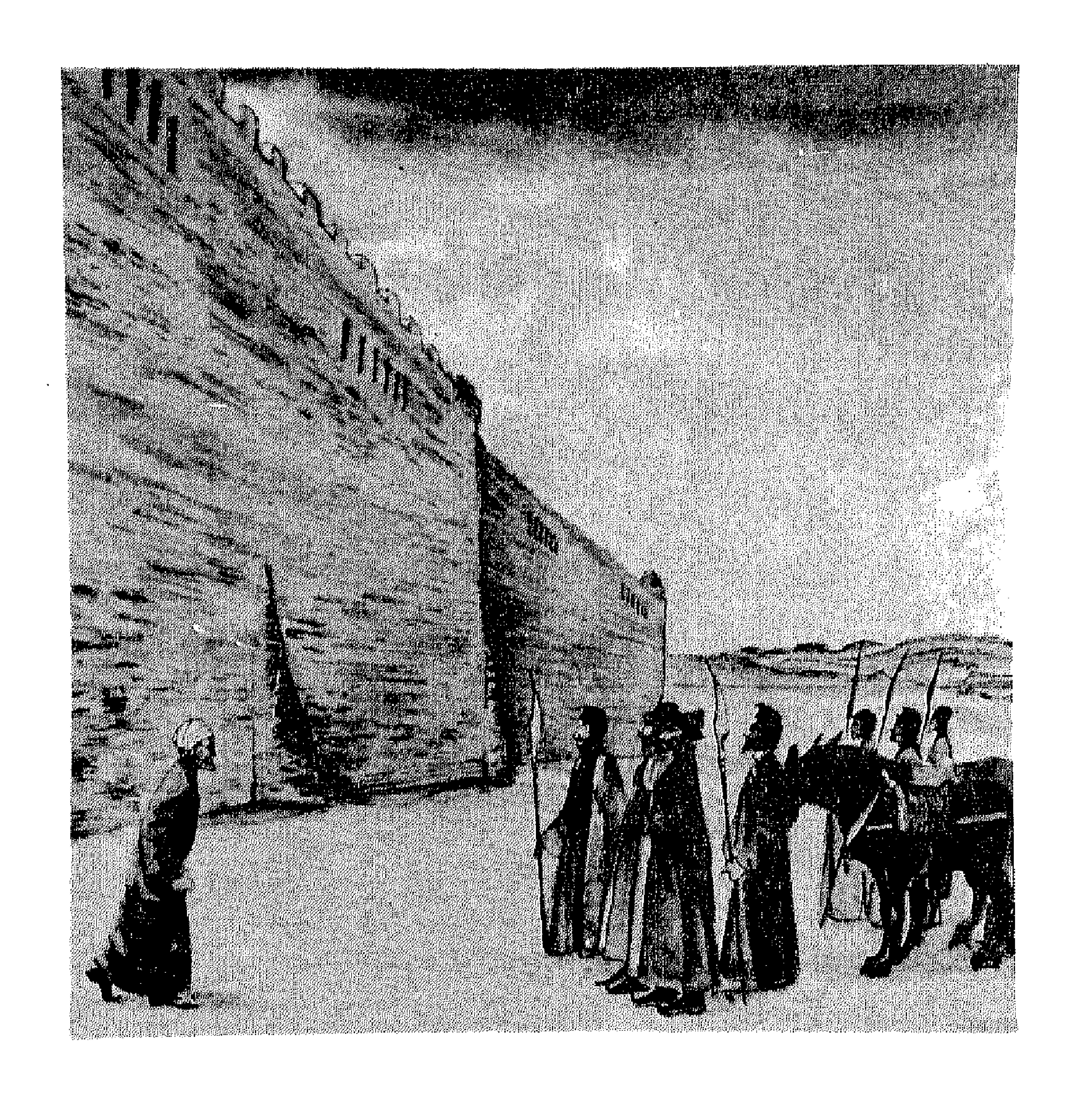
وفي داخل اسوار مدينة دمشق ، اجتمــع القــادة العسكريون ، يبحثون الموقف . فوجدوا ان مقاومــة تيمورلنك ، ستؤدي الى تدمير المدينة تماما . فاستقر رأيهم على مفاوضته . وكان رسولهم الى تيمورلنك ، هو العالم الشيخ عبد الرحمن بن خلدون .



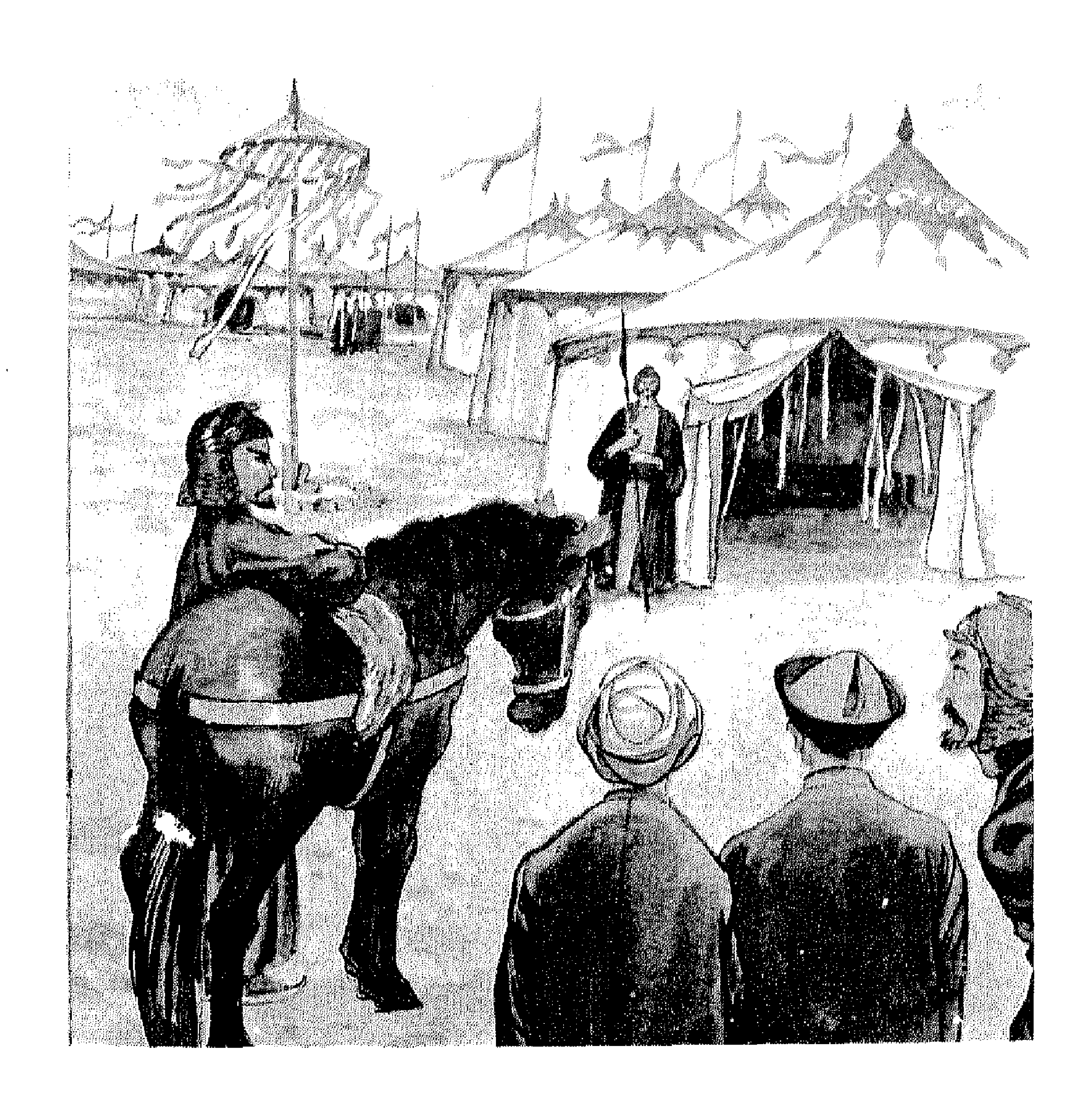
في الصباح المبكر لليوم التالي ، قام الجنود العرب بانزال ابن خلدون من فوق اسوار دمشق ، بواسطة حبل ربطوه به ، واخذوا يدلونه برفق حتى وصل الى الارض بسلام .



عند السور من الخارج ، كان جنود الغازي ، في انتظار الرسول الهابط من فوق السور . وكان على رأسهم « شاه ملك » نائب تيمورلنك ، الذي عينه واليا على دمشق ، قبل الاستيلاء عليها .



جرى استقبال ابن خلدون باحترام وتوقير ، ووجد في
انتظاره حصانا مسرجا ، يحمله الى معسكر تيمورلنك .



وبعد رحلة قصيرة ، وصل الركب الى المعسكر ، الذي يموج بالحركة والنشاط ، ولفتت نظر ابن خلدون خيام تيمورلنك وقادته ، بقماشها المزركش ، واعمدتها المفضضة ، وحبالها المكسوة بالحرير .



سمح تيمور لنك لابن خلدون بالدخول عليه ، فدخل الشيخ الى الخيمة وجلا ..ليجد تيمورلنك يجلس متكئا على مرفقه ، وصحاف الطعام المذهبة تمر بين يديه .



ما ان انتهى من طعامه ، حتى جيء بالمترجم الذي اخذ ينقل الكلام بينهما . واستمرت المفاوضة بينهما مدة اربعين يوما . حرص تيمورلنك خلالها ، ان يسأل ابن خلدون عن عمله ومنجزاته في التاريخ ، وعن احوال المغرب والمشرق العربي .



وفجأة .. وصلت المفاوضات الى نهايتها .. عندما اقبل بعض فرسان تيمورلنك فرحين مهللين ، يعلنون سقوط دمشق بين ايديهم .. فينكس ابن خلدون رأسه حزنا على اخفاقه في مهمته .. ويمضي عائداً الى مصر .

## أسـرة عريقة

هو ابو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ، الشهير باسم .. ابن خلدون .

اما اسمه فهو عبد الرحمن .. وقد اضيفت ( ابو زيد ) بعد ان انجب ابنه الاكبر زيدا ، على عادة العرب .. واكتسب لقب ( ولي الدين ) بعد ان تولى منصب القضاء بمصر .. و ( ابن خلدون ) اسم الشهرة هذا ، وصل اليه من اجداده العرب ، الذين دخلوا الاندلس مع الفتح العربي .

فعبد الرحمن بن خلدون ، من اسرة عربية عريقة ، هاجرت من حضر موت في جنوب بلاد العرب الى الحجاز ، في العصور السابقة للاسلام . واشتهر منها في صدر الاسلام ، وائل بن حجر الذي صحب الرسول عليه السلام ، وروى عنه الاحاديث . كما ان الرسول عليه السلام ، اوفده الى اليمن يعلم اهلها القرآن والاسلام .

وفي زمن الفتح العربي للاندلس ، دخل اليها خالد بن عثمان ، احد اجداد ابن خلدون .. وعن طريق هذا الجد ، اكتسبت الاسرة اسم ( خلدون ) .. فعندما وصل خالد بن عثمان الى الاندلس ، تبع عادة اهل الاندلس والمغرب في التعظيم ، فتحولت ( خالد ) الى ( خلدون ) .

نشأ بنو خلدون في مدينة بالاندلس تسمى « قرمونة » ، ثم نزحوا بعد ذلك الى مدينة « اشبيلية » . ومنذ ذلك الحين ، اكتسب بنو خلدون شهرة واسعة كرجال سياسة وحكم ، وكعلماء افاضل . ففي زمن الامير عبدالله الاموي ، اضطربت الاندلس بالفتن والثورات ، وكانت اشبيلية موطن بني خلدون في مقدمة المدن الثائرة ، وانتهت الثورة بان استقل احد اجداد ابن خلدون بامارة اشبيلية ، وهو كريب بن خلدون . كما اشترك زعماء بني خلدون في موقعة « الزلاقة » الشهيرة ، التي انتصر فيها العرب على الفونسو السادس ملك قشتاله ( اقليم باسبانيا ) . وفي عهد ابن عباد ، صعد عدد من اسرة ابن خلدون الى مرتبة الرئاسة والوزارة .

وعندما ضعفت دولة العرب في الاندلس ، واضطربت الامور ، هاجر بنو خلدون الى تونس ، حيث تولى الجد الثاني لعبد الرحمن ( ابو بكر محمد ) شئون الدولة بتونس ، كما تولى جده الاول ( محمد بن ابي بكر ) رئاسة الوزارة لحاكم امارة « بجاية » . اما ابنه محمد ( والد عبد الرحمن ) ، فقد عزف عن السياسة والسلطة ، وآثر العلم ، فكان حجة في علوم الفقه ، وفي فنون الشعر . ولم يكن اتجاه والد ابن خلدون الى العلم ، حالة شاذة في العائلة ، فمن بين اجداد عبد الرحمن ، كان عمر بن خلدون عالم الرياضة والفلك والطب الشهير .

وقد تحدث احد قدامى المؤرخين عن مكانة اسرة ابن خلدون فقال « بيت بني خلدون الى الان في اشبيلية ، نهاية في

النباهة ، ولم تزل اعلامه بين رياسة سلطانية ، ورياسة علمية » . وكان لتاريخ الاسرة ، تأثيره القوي على ابن خلدون ، سواء في سعيه السياسي وتطلعه الى السلطة ، ام في اجتهاده العلمي ، الذي جعله يحظى عن جدارة بلقب « مؤسس علم الاجتماع » .

## الكارثة المزدوجة

ولد عبد الرحمن بن خلدون بتونس عام ١٣٣٢ م ( ٧٣٢ هـ ) ، وكعادة اولاد الاشراف ، كان ابوه معلمه الاول ، عندما بلغ سن التعلم . ثم انتقل بعد ذلك من اشراف ابيه ، الى مدرسة المسجد ( الكتاب ) . وما ان انتهت هذه المرحلة من دراسته ، حتى تلقفته ايدي عدد من كبار العلماء الذين احتشدت بهم تونس في ذلك الوقت .

كانت تونس في ذلك الحين ، مركز العلماء والادباء في بلاد المغرب ، كما انها كانت قد استقبلت قبل ذلك التاريخ ، الكثير من علماء الاندلس وادبائها . فكان من هؤلاء جميعا اساتذة ابن خلدون . قرأ عليهم القرآن ، ودرس علوم الشريعة والتفسير والفقه على المذهب المالكي ، الذي كان سائدا في المغرب . كما درس الفلسفة والمنطق ، وعلوم اللغة والنحو والصرف والبلاغة والادب ، مع عناية خاصة بالشعر .

وقد تحدث ابن خلدون عن اساتذته ، فخص منهم بالذكر ، استاذه محمد بن عبد المهيمن الحضرمي الذي درس على يديه علوم الفقه الحديث والسيرة وعلوم اللغة ... ثم ابو عبدالله محمد الابلي ، الوافد من الاندلس ، والذي درس عليه العلوم الرياضية والمنطق .

عندما بلغ ابن خلدون السابعة عشرة من عمره ، كان قد انهى دراسته على ايدي اساتذته ، وبدأ مرحلة التثقيف الذاتي ، يغوص في المراجع ، ويشارك في المناقشات ، معتمدا على الاساس العلمي المتين الذي اكتسبه في المرحلة السابقة . في هذه السن ، اخذ ابن خلدون يخطط لمستقبله العلمي ، مقتفيا اثار والده ، ومستمدا المثل من اجداده الذين اشتهروا بعلمهم ، مثل عمر بن خلدون .

الا ان الاحداث الخطيرة التي تبعت هذا ، غيرت هذه الخطة ، ودفعت بابن خلدون الى طريق جديد ، هو خليط بين امجاد الاسرة ، السياسية والعلمية .

ففي عام ١٣٤٩ م ( ٧٤٩ هـ ) ، وقع حادثان خطيران ، كان لهما اكثر الاثر في مجرى حياة ابن خلدون . اولهما ، حادث وباء الطاعون الجارف الذي انتشر في معظم انحاء العالم شرقا وغربا ، فطاف بالبلاد الاسلامية من سمرقند في قلب آسيا الى المغرب في افريقيا ، كما عصف في نفس الوقت بايطاليا ومعظم البلاد الاوروبية . كان ذلك الوباء نكبة كبرى وصفها ابن خلدون بانها « طوت البساط

بما فيه » . لم يفرق الوباء بين كبير او صغير .. وكان بين من قضى عليهم والد ابن خلدون ووالدته .

اما الحادث الاخر ، فكان هجرة معظم العلماء والادباء الذين افلتوا من الوباء المكتسح ، من تونس الى المغرب الاقصى ، في صحبة السلطان ابي الحسن ، سلطان المغرب القوي ، الذي كان قد اكتسح المغرب الاوسط والأدنى بجيوشه حتى استولى على تونس . عاد السلطان الى مقر سلطنته في مدينة « فاس » ، مصطحبا معه العلماء والادباء ، لتخلو منهم مجامع العلم والادب في تونس .

بضربة واحدة ، حرم ابن خلدون من الوالدين ، ورفقاء الدرس والعلم . فكان اثر هذه الصدمة المزدوجة على ابن خلدون كبيرا . فقد جو الاستقرار الذي كان يحيط به .. وارتبكت خططه للمستقبل . ففكر في الهجرة الى فاس ، ضمن من هاجروا من العلماء ، الا ان اخاه الاكبر محمد بن خلدون ، اقنعه بالبقاء .

تلفت فتانا حوله ، فوجد السبل قد تقطعت بينه وبين مواصلة التحصيل .. فلم يكن امامه سوى ان يلوذ بالجانب الاخر من تراث العائلة .. جانب السياسة والحكم .. مقتفيا اثار جديه الاول والثاني ، واجداده القدماء بالاندلس .

## أيـن السلطان القوي ؟

كانت دولة الموحدين القوية بالمغرب العربـي ، قد انهارت قبل هذا التاريخ ، وقامت على انقاضـها عدة دويلات وامارات ، تميز من بينها :

ـ دولة بني حفص بتونس ( المغرب الادنى ) . وكانت عاصمتها تونس .

ـ دولة بني الواد بالجزائر ( المغرب الاوسط ) . وكانت عاصمتها تلمسان .

ـ دولة بني مرين بمراكش ( المغرب الاقصى ) . وكانت عاصمتها فاس .

وقبل حادث الطاعون بعدة سنوات قام السلطان ابو الحسن ، سلطان دولة بني مرين ، اقوى الدول الثلاث ، بغزو جبل طارق وانتزاعه من يد الاوروبيين ، ثم اتجه شرقا الى تلمسان فاستولى عليها ، واستولى بعد ذلك على تونس . ولبث حوالي عامين في تونس يرسى قواعد حكمه الجديد فيها ، حتى جرى حادث الطاعون ، فتركها الى عاصمة ملكه فاس ، كما أسلفنا .

ما كاد السلطان ابو الحسن ، يغادر تونس ، حتى زحف عليها احد رجال بني حفص ، فاستردها ، واتخذ له وزيرا يسمى ابن تافراكين . وعهد الوزير الى ابن خلدون في

عام ١٣٥٠ م ( ٧٥١هـ ) بوظيفة « كتابة العلامة » ، وهي وظيفة كتابية بسيطة لا تتجاوز كتابة « الحمد الله والشكر له » بالقلم الغليظ بين البسملة وما بعدها في كل خطاب أو مرسوم سلطاني . ورغم ان هذه الوظيفة قد جرحت طموح ابن خلدون السياسي ، الا انه قبلها طامعا في الصعود منها على سلم السلطة .

خرج ابن خلدون مع الوزير ابن تافراكين في حملة حربية لوقف زحف احد الامراء على تونس . ولم يكن خروج ابن خلدون في هذه الحملة حماسا للوزير ، بل كان نوعا من الفضول ، ورغبة في الاطلاع على طبيعة الحرب ، التي كانت في ذلك الحين الاداة الفعالة في الاستيلاء على السلطة .

بدأت المعركة .. فتمخضت عن هزيمة جيش ابن تافراكين ، وسادت الفوضى معسكر الوزير ، وعم الزعر ، ففر ابن خلدون ، لكنه لم يتخذ طريق العودة الى تونس .. بل راح يجوب البلاد ، حتى وصل اخيرا الى مدينة تسمى « بسكرة » بالمغرب الاوسط .

في بسكرة ، امضى ابن خلدون شتاء ذلك العام ، وتزوج ابنة القائد محمد بن الحكيم . ثم اخذ خلال فترة الاستقرار القصيرة هذه ، يفكر في خطة لحياته .. خطوة تقوده الى المركز السياسي الذي يصبو اليه ، والذي يتفق مع تاريخ اجداده في هذا المضمار . وهداه تفكيره ان يبدأ من فاس ، عاصمة دولة بني مرين .. أقوى دول المغرب العربي . في ذلك الوقت كان السلطان ابو عنان بن ابي الحسن ، ملك

المغرب الاقصى ، قد سار بجيشه لاسترداد دول ومدن المغرب التي استقلت بعد عودة ابيه من تونس .. فتم له ذلك ، واثناء اقامته في تلمسان في طريق العودة الى عاصمته ، سافر اليه ابن خلدون ، ساعيا الى عرض خدماته على السلطان القوي ، فعينه عضوا في مجلسه العلمي بفاس ، وكلفه شهود الصلوات معه .

سافر ابن خلدون الى فاس في عام ١٣٥٤م ( ٧٥٥هـ ) ، وكانت فرحته كبيرة بلقاء اساتذته من العلماء والأدباء ، وصحبه رفاق دراسته ، وبالمكتبات الكبيرة التي تضم الاف المراجع والمخطوطات . وشجعه هذا على الاستزادة من المعارف والعلوم ، وان كان حريصا في نفس الوقت على تنمية وضعه في السلطنة ، فنجح بعد عام في ان يصبح من كتاب السلطان وموقعيه ، يسجل الاحكام الصادرة عن السلطان ، ويكتب له وثائقه .

فهل رضي ابن خلدون بهذا ؟..

ما ان تبدد حماسه للوظيفة الجديدة ، حتى عاد اليه سخطه القديم ، وبدأ في التطلع من حوله ، باحثا عن الفرصة المواتية . ومنذ ذلك الحين ، كان تطلع ابن خلدون الدائم ، يحيل حياته الى مغامرات عاصفة ، تسودها المناورات السياسية ، بكل ما فيها من مد وجزر ، وما تتصف به من تقلب وانتقال من النقيض الى النقيض . تلك الحياة السياسية ، التي كان الولاء يخضع فيها لتوزيع خريطة السلطة والقوة والنفوذ ، ذلك لان الصراع بين السلاطين

والامراء انفسهم ، لم يكن حول مبدأ او مذهب او عقيدة .. بل كان مجرد صراع سلطة ونفوذ .

## السجن .. ضريبة الطموح

يجري ابن خلدون اتصالا بامير « بجاية » الاسيرفي فاس ، ابي عبدالله الحفصي ، ويضع معه خطة تحريره من السجن واسترداده لملكه ، فيعده الامير بمنصب الحجابة ( رئاسة الوزارة ) اذا نجحت الخطة . فيبلغ ابا عنان خبر المؤامرة ، ويقبض على ابن خلدون ويودعه السجن ، ليبقى فيه حتى عام ١٣٥٧ م ( ٧٦٠ هـ ) .

طوال مدة سجنه لم ينقطع ابن خلدون عن التضرع الى السلطان ، وطلب عفوه .. دون جدوى . الى ان كتب قصيدة شعر مؤثرة في نحو مائتي بيت ، فرق له قلب السلطان ، وقبل ان يتخذ قرار العفو ، يعاجله الموت .. فيبقى ابن خلدون في سجنه . حتى يصل الوزير الحسن بن عمر الى مركز السلطة فيفرج عنه ، ويرده الى سابق وظائفه .

يتوالى الحكام على الدولة في سلسلة من المؤامرات والانقلابات ، الا ان ابن خلدون يبقى في وظائفه ، ناقلا ولاءه من سلطان الى اخر ، مساهما في هذه التغيرات ، بما يحمى

وجوده ، ويحفظ له وظائفه . وتنجح خطته هذه ، فما ان يصل ابو سالم بن ابي الحسن الى السلطنة ، حتى يجعله موضع ثقته وعطفه ، ويعينه في وظيفة « كتابة سره ، والترسيل عنه ، والانشاء لمخاطباته » .

تستقر حياة ابن خلدون بعض الشيء ، فيبدع في كتابة الرسائل ، وينهج فيها نهجا جديدا ، ويحررها من قيود السجع التي كانت شائعة في ذلك العصر . وتتفتح شاعريته ، فينظم الكثير من الشعر ، وفي هذا يقول ابن خلدون ، بصدقه في التسجيل وموضوعيته في الحكم « ثم اخذت نفسي بالشعر ، فانثال علي منه بحور ، توسطت بين الاجادة والقصور » . وتتضاعف سعادة ابن خلدون عندما يضاف القضاء الى مناصبه ، فيمارسه بعدالة وكفاءة ، ويتعرف من خلال وظيفته هذه على مشاكل الناس ومشاعرهم .

وفي عام ١٣٦١ م ( ٧٦٢ هـ ) ، تحدث ثورة على السلطان ، ويجري خلعه ، فيخلفه اخ له ، وان استبد بالسلطة وزير يدعى عمر بن عبدالله ، كان صديقا لابن خلدون . ويتوقع ابن خلدون ان يصعد في سلم السلطة على يد الوزير الصديق .. الا ان توقعه يبقى مجرد حلم .. ويطول به التوقع دون جدوى .. فيغضب ويستقيل .

يتطلع ابن خلدون حوله ، باحثا عن الموقع المناسب لتحقيق طموحه .. فلا يرى في المغرب العربي بأكمله ما يتيح له هذه الفرصة .. ثم يتذكر ان سلطان غرناطة بالاندلس ، محمد بن الاحمر ، ووزيره الاديب الشهير ابن الخطيب ،

تربطه بهما صداقة متينة ، منذ ان كانا لاجئين في بلاد السلطان ابي سالم بفاس ، وانه قدم لهما الكثـير من الخدمات ، فيصبح عزمه على الارتحال عن القارة الافريقية بأكملها ... والسفر الى غرناطة .

فيرسل زوجته واولاده الى اخوالهم ، ابناء القائد محمد بن الحكيم ، ثم يقصد الى ميناء « سبتة » في عام ١٣٦٢ م ( ٧٦٤ هـ ) ، حيث يركب سفينة صغيرة توصله الى جبل طارق .. ومن هناك يتوجه الى غرناطة .

## سفير غرناطة الناجح

يحتفى سلطان غرناطة ووزيرها بابـن خلـدون ، ويعاملاه معاملة كريمة ، فيضمه السلطان الى مجلسه ، ويقربه اليه ، مما يبعث السعادة الى قلب ابن خلدون ، وتتفتح اماله من جديد .

ويفكر السلطان في تهدئة الأوضاع ، بينه وبين ملك قشتالة الاوروبي ، والذي كان يسمى بيير القاسي ، لما اشتهر به من صرامة وطغيان وبطش . فيقع اختيار السلطان على ابن خلدون للقيام بامر السفارة بينه وبين الملك الاوروبي ، ولابرام صلح معه ، وتنظيم العلاقات السياسية بينهما .

يسعد ابن خلدون بالمهمة سعادة مزدوجة .. ففيها امتحان حقيقي لقدراته السياسية ، كما ان سفـــره الى «اشبيلية » عاصمة قشتالة ، يحقق رغبته القديمة ، في زيارة المدينة التي عرفت امجاد اجداده الاول المهاجرين من بلاد العرب .

ينجح ابن خلدون في مهمته كل النجاح ، ويحقق كل اغراض الزيارة ، وعندما يعود الى غرناطة ، يهبه السلطان احدى القرى المجاورة لغرناطة ، مكافأة له على جهـــده الناجح ، فيتضاعف دخله ، ويتحسن احواله . ويستأذن السلطان في استقدام اسرته ، فيبعث السلطان من يجيء بها ، ويأمر اسطوله بنقل الاسرة الى الشاطيء الاسباني ، حيث كان ابن خلدون في انتظارها ، فيلتئم شمل العائلة ، ويتحرك الركب الى قريته ، بما هيأه فيها من منزل جميل ، وبستان حسن التنسيق . وبدا كما لو ان الحياة قد استقرت بهذه العائلة بعد طول اضطراب .. الا انه ما ان تمضي عدة شهور .. حتى تتجمع السحب الملبدة في الافق .

فالعلاقات بين ابن خلدون والسلطان تتوطد ، وفي كل يوم يزداد قرب ابن خلدون منه ، فيسعى الوشاة الى الوزير ابن الخطيب ، يحذرونه من عاقبة هذه العلاقـــة الناميـــة ، ويستجيب الوزير الى هذه الوشايات ، ويأخذ بدوره في الايقاع بابن خلدون عند السلطان .. ويشم ابن خلدون بحاسته السياسية رائحة الخطر المقبل . فيأخذ من جديد ، يتطلع الى الدول والامارات من حوله ، باحثاً عن ملاذ .. ولكن الى اين ؟..

وتجيء الاجابة عن هذا السؤال ، في شكل دعوة من ابي عبد الله الحفصي .. الامير الاسير الذي اشترك معه منذ عدة سنوات في وضع خطة الهروب الفاشلة ، التي ادت به الى السجن .. لقد اصبح الآن اميراً على عرش « بجاية » .
عرض ابن خلدون الدعوة على سلطان غرناطة مستأذناً في السفر ، فأذن له ، وزوده بالعطايا والمنح ، وكتب له مرسوماً بالتشييع ( وهو ما يقابل جواز السفر هذه الايام ) ، يفيض مدحاً وثناء على ابن خلدون وبالايسف على فراقه ، ويأمر كل من يلقاه ، بتقديم كافة المساعدات والتسهيلات .

وهكذا ، ركب ابن خلدون البحر تصحبه اسرته ، مبارحاً الشاطيء الاسباني ، في طريقه الى بجاية ، وكان ذلك في عام ١٣٦٤ م ( ٧٦٦ هـ ) .

## ابن خلدون .. رئيساً للوزراء

في بجاية .. كان في إستقبال ابن خلدون اميرها واهلها . وفي هذا يقول ، « احتفل السلطان صاحب بجاية لقدومي ، واركب اهل دولته للقائي ، وتهافت اهل البلد على من كل أوب ، يمسحون اعطافي ، ويقبلون يدي ، وكان يوماً مشهوداً » .. كيف لا .. وقد قدم ابن خلدون الى بجاية كرئيس لوزرائها .

ويصف ابن خلدون حاله في ذلك الوقت قائـــلا ، « واصبحت من الغد ، وقد امر السلطان اهل الدولة بمباكرة بابي ، واستقللت بحمل ملكه ، واستفرغت جهدي في سياسة اموره وتدبير سلطانه ،وقــدمني للخطابة بجامع القصبة ، وانا مع ذلك عاكف ــ بعد انصرافي من تدبير الملك غدوة ــ الى تدريس العلم اثناء النهار بجامع القصبة » .

وهكذا تتحقق لابن خلدون احلامه كاملة ، ارقى المناصب السياسية ، واعلى المراكز العلمية . ومضى يدير الامور بحسم وكفاءة يعالج الفتن القائمة ، ويتجول بين قبائل البدو ، يجبي منها الضرائب بكل ما اوتي من صرامة واقناع .

الا ان الرياح العاصفة لا تلبث ان تهب من جديد ، لتبدد امن حياته الجديدة . يهجم السلطان ابو العباس حاكم « قسنطينة » بجيوشه على ابن عمه سلطان بجاية ، فيقتله ويدخل بجاية ظافراً .

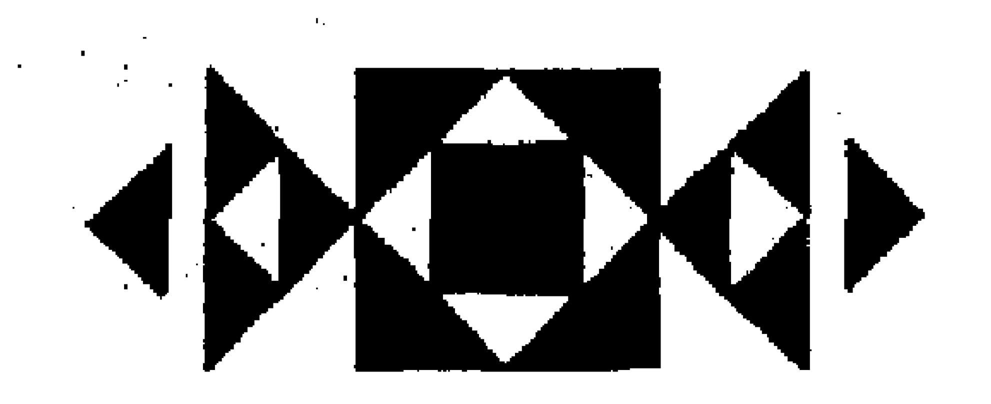
تأكد ابن خلدون من استحالة اتصال حياته السابقة في بجاية . واخذ يفكر ــ بمرارة ــ في احتمالات المستقبل ، تحزنه هذه النهاية المبتورة ، لفترة قصيرة من حياته بدأ يحقق فيها احلامه القديمة . واحس ان القلق والاضطراب ، هو قدر حياته المحتوم الذي لا فكاك منه . فتوقف عن الحركة انتظاراً للخطوة القادمة .

وعندما اتاه بعض الزعماء ، طالبين منه ان يدعو لأحد ابناء السلطان القتيل خليفة له ، وان يواصل معهم النضال ضد السلطان الغازي .. اصغى اليهم بعقل غائب .. وتركهم

ينصرفون ، دون ان يستجيب لمطلبهم . وكان من نتيجة هذا ، ان اكرمه السلطان ابو العباس ، فأبقاه في منصب رئاسة الوزارة لبعض الوقت ، ثم ما لبث ان انقلب عليه ، فخاف ابن خلدون على حياته ، وفر الى مدينة بسكرة .. ملاذه كلما تعقدت الامور .

في بسكرة ، اقام ابن خلدون ، يتابع الاحداث ، ويتسقط الانباء . متصوراً انه في مكانه هذا ، قادر على البقاء ما شاء من الوقت ، حتى تحل اللحظة المناسبة لحركته . غير ان الامر لم يعد على هذه الصورة .. فقد اضحى ابن خلدون بنفسه ، قوة يسعى اليها السلاطين والامراء ، لما عرف عنه من قدرة على تحريك قبائل البدو واستنفارها .

اكتشف ابن خلدون هذه الحقيقة خلال الفترة التالية من حياته .. اكتشف انه اصبح مجرد اداة اثارة وتهييج وتأليب في يد السلاطين ، وكأن هذا هو غاية قدراته ومواهبه وعلمه . ولعل هذا الاكتشاف ، هو الذي ادى الى التغيير الكبير الذي طرأ على حياته في المرحلة التالية من حياته .



في بسكرة ، أرسل اليه الامير ابو حمو سلطان تلمسان ، يعرض عليه رئاسة الوزارة في تلمسان ، مقابل الاستعانة بخبرته وعلاقاته ، في دعوة القبائل واستمالتها وتأليبها على السلطان أبي العباس ، الذي غزا بجاية وقتل سلطانها .

اعتذر ابن خلدون عن قبول رئاسة الوزارة !.. واكتفى بأن رشح اخاه يحي : ويقول ابن خلدون ان الذي دعاه الى هذا الاعتذار ، عزوفه حينئذ عن شئون السياسة ، ورغبته في الرجوع الى المطالعة والدرس . الا ان ابن خلدون ، بهذا التفسير ، يستبق الاحداث . فما جرى بعد ذلك ، يؤكد انه كان حتى ذلك الوقت منغمساً في احلام السلطة السياسية . فرغم اعتذاره عن الوزارة اخذ يتصل بالقبائل ويحرضها على ابي العباس . بل انه عندما تحرك ابو حمو بجيشه للقاء ابي العباس ، عمل بنشاط منقطع النظير ، على حشد زعماء بسكرة وقواتهم والخروج بهم لنصرة جيش ابي حمو . وبالرغم من هذا ، فقد تغلبت جيوش ابي العباس ، فعاد ابن خلدون ادراجه الى بسكرة ، مترقباً فرصة تالية للثأر .

وتاريخ ابن خلدون ، للسنوات الخمس التالية ، محموم ، غاية في الاضطراب . سفر الى بلاط ابي حمو ،

محاولة للهرب الى اسبانيا في اعقاب هجوم من سلطان المغرب الاقصى على تلمسان .. اعتقاله اثناء هربه ، ثم الافراج عنه .. محاولات غير جادة للتفرغ للدرس والتحصيل تقطعها نداءات السلاطين للمساعدة في كسب قبائل واستعداء قبائل اخرى ... تارة يجد نفسه في معسكر ابي حمو .. وتارة اخرى يجد نفسه عاملاً في معسكر اعداء ابي حمو .. دوامة متصلة لا تهدأ .

حتى مدينة بسكرة ، التي كانت دائماً ملاذه الامين كلما تعقدت الامور .. اصبحت اقامته بها مستحيلة ، بعد ان ظن به اميرها الظنون ، وتوهم ان ابن خلدون يدبر انقلاباً ضده ، فغادرها مع اسرته وبعض انصاره الى تلمسان حيث يقيم السلطان عبد العزيز ، واثناء الرحلة يبلغه نبأ وفاة السلطان عبد العزيز ، وانتقال ابنه وخليفته السلطان السعيد بمقر السلطنة الى فاس . فيقرر السفر اليها . ويعلم بذلك السلطان ابو حمو الذي ينقم على ابن خلدون لتعاونه في المرحلة الاخيرة مع منافسيه ، فيحرض بعض الاشقياء ، لينقضوا عليه في الصحراء ، وينهبوا متاعه ، ومتاع من كانوا بصحبته ، ويتركونهم جميعاً عرايا ، يواصلون رحلتهم الى فاس ، فيصلونها في حالة يرثى لها .

وحتى عندما يقيم بفاس ، متفرغاً للدراسة والتحصيل ، دون ان تكون له صلة بالحياة السياسية ، يحدث بها انقلاب يودي بسلطانها ، ويشى به البعض لدى سلطانها الجديد ، فيسجنه حيناً ، ثم يفرج عنه . وما ان

يخرج من السجن ، حتى يقرر السفر الى الاندلس مرة ثانية ، تاركاً اسرته في فاس ، لكن الدسائس تلاحقه ، فيضطر سلطانها الى ابعاده عن غرناطة ، ويرسله الى تلمسان .

في طريق العودة من هذه الزيارة المبتورة الى غرناطة ، يتخذ ابن خلدون القرار القاطع في شأن حياته .. لقد ضاق بلعبة السياسة والسلطة والحكم ، وشبع من مفاجآتها وقرر جاداً هذه المرة ... التفرغ للانتاج العلمي .

لقد احس ان الزمن تغير ، وانه في ظل الظروف السائدة في المغرب العربي ، لن يستطيع ان يجدد امجاد اسلافه من رجال السياسة والحكم ، او يصل الى ما وصلوا اليه .. فكان قرار الاعتزال .

## في قلعة ابن سلامة

يصل ابن خلدون الى تلمسان ، فيجد بها صديقه وخصمه السابق السلطان ابو حمو ، الذي يجدد صداقته بابن خلدون ، في مقابل تكليفه بمهمة سياسية لدى بعض القبائل .

هنا ... وفي ضوء القرار الحاسم الذي اتخذه ابن خلدون باعتزال الحياة السياسية والتفرغ للانتاج العلمي ..

يتظاهر بالاستجابة لمطلب السلطان ، ويخرج من تلمسان متجهاً الى الوجهة التي اوفده اليها السلطان .. لكنه ، وفي منتصف الطريق ، ينحرف في اتجاه اصدقائه قبائل اولاد عريف ، فيلقونه بالاحتفاء والتكريم ، ويتوسطـون لدى السلطان ابو حمو حتى يقبل اعتذاره ويرسل اليه عائلته ، فينزلون جميعاً في مكان يقال له قلعة ابن سلامة ضيوفاً على اولاد عريف .

قضي ابن خلدون في ذلك المكان ما يقرب من اربعة اعوام ، تمتع فيها بالاستقرار والهدوء ، وتفرغ خلالها للدراسة والتأليف . فأنجز مؤلفه التاريخي الشهير ، ذلك البحث الذي استحق عليه لقب « مؤسس علم الاجتماع » . وبدأ بكتابة مقدمة لذلك البحث اشتهرت فيما بعد باسم « مقدمة ابن خلدون » ، تناول فيها شئون المجتمع الانساني وقوانينه .

كان ابن خلدون في ذلك الوقت قد بلغ الخامسة والاربعين من عمره ، فجاء قرار التفرغ للانتاج العلمي ، في الوقت الذي نضجت فيه معارفه ، وتفاعلت مع خبراته العلمية الواسعة في شئون البشر ومجتمعاتهم .

انتهى ابن خلدون من كتابة المقدمة في خمسة اشهر فقط ، وفي هذا يقول : « اقمت بها ( اي قلعة ابن سلامة ) اربعة اعوام ، متخلياً عن الشواغل كلها ، وشرعت في تأليف هذا الكتاب ، وانا مقيم بها ، واكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت اليه في تلك الخلوة ، فسالت فيها

شآبيب الكلام والمعاني على الفكر ، حتى امتخضت زبدتها ، وتألفت نتائجها » .

أخذ ابن خلدون يراجع ما كتبه ، ثم يواصل الكتابة ، ويتفرغ للمراجعة ، حتى انتهى من الشكل المبدئي لكتابة الشهير « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في ايام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » .

اعتمد ابن خلدون في عمله على ذاكرته ، وعلى الخبرات التي مرت به في حياته الحافلة ، وعلى المراجع القليلة المتوفرة في مكانه ذلك . غير انه وصل في عمله الى مرحلة ، احس فيها بحاجته الشديدة الى المراجع التي لا بد ان يعتمد عليها في تأصيل بحثه . وادرك استحالة الاستمرار في عمله بقلعة ابن سلامة ، فاعتزم العودة الى وطنه الأصلي تونس ، حيث يجد في مكتباتها ، كل ما يحتاج اليه من معلومات .

كان سلطان تونس في ذلك الوقت هو ابو العباس ، الذي سبق لابن خلدون ان فر منه الى بسكرة ، وشارك في تأليب القبائل عليه اكثر من مرة . ولذا كان من الضروري ان يكتب اليه طالباً الصفح ، والاذن بالقدوم الى تونس .

وفي عام ١٣٧٨ م ( ٧٨٠ هـ ) غادر ابن خلدون قلعة ابن سلامة متجهاً الى تونس ، بعد ان وصله عفو السلطان وموافقته . وصل ابن خلدون الى مسقط رأسه بعد غيبة طويلة ، فهيأ لاسرته مقاماً مستقراً ، وعكف على البحث والاطلاع ، حتى اتم مؤلفه ، ونقحه وهذبه ، ورفع نسخة منه

الى السلطان ابي العباس في اوائل عام ١٣٨٢م ( ٧٨٤ هـ ) ، فتقبلها السلطان قبولا حسناً .

يواصل ابن خلدون عمله العلمي ، ويقوم في نفس الوقت بالتدريس لطلبة العلم ، وقد اتسعت حلقة الدرس الخاصة به ، وهاجر اليها طلاب العلم في الحلقات الاخرى ، ومن بينها حلقة رئيس قضاة تونس . فأكلت الغيرة قلب رئيس القضاة ، واخذ يدس لابن خلدون عند السلطان ابي العباس ، ويحذره من عودة ابن خلدون الى سابق عهده في تأليب القبائل واثارة الاضطرابات .

وكان السلطان قد اصطحب ابن خلدون في حرب من حروبه ، وقبل ابن خلدون مرغماً ، على سبيل المجاملة . فخشي ابن خلدون ان يعود السلطان الى اصطحابه في حرب تالية ، والزج به مرة ثانية في عالم السياسة الذي ضاق به . كما احس بالاحقاد التي ينفثها رئيس القضاة ، فقرر مغادرة تونس . وكان اسلم عذر يقبله السلطان ، هو ان يطلب السماح له بالحج الى بيت الله ، وقضاء الفريضة .

ما ان وافق السلطان ، حتى انطلق ابن خلدون الى ميناء تونس ، يبحث عن اول سفينة مبحرة ، فوجدها سفينة لتجار الاسكندرية ، تأهبت للابحار اليهـا . وفي موكب مهيب ، توجه جمع من الاعيان والاصدقاء والتلاميذ لوداع الاستاذ الجليل عبد الرحمن بن خلدون ، وكأنهم يحسون وداعهم له ، هو الوداع الاخير . وهكذا ودع ابن خلدون الشاطىء التونسي ، في طريقه الى الاسكندرية عام ١٣٨٢م

## ابن خلدون في مصر

وصل ابن خلدون الى ثغر الاسكندرية في يوم عيد الفطر ، وبقي فيها شهراً ، ثم قرر السفر الى القاهرة . فقد كان امله كبيراً في ان يجد فيها التشجيع على مواصلة جهده العلمي ، وهي في ذلك الوقت راية التفكير الاسلامي في المشرق والمغرب العربي .

الا ان القاهرة كانت تعرف ابن خلدون قبل ان يصلها ، فقد كان لدى علمائها معرفة كاملة بشخصيته وبحوثه التاريخية والاجتماعية ، ولا سيما مقدمته التي اعجبت بها الاوساط العلمية بالقاهرة ، لما تحتويه من آراء مبتكرة في شئون الاجتماع ، ولذا فقد لقي ابن خلدون في القاهرة الترحيب الحار والاستقبال الرائع والتف حوله عدد كبير من العلماء وطالبي العلم . فاستقر في وعيه نداء ... هنا مكاني . وقد اثبتت الايام صدق ذلك النداء ، الذي استجاب له عالمنا الكبير ، والذي كان في وقت قد بلغ الثانية والخمسين من عمره .

ولقد ساعد ابن خلدون ، على مواصلة الانتاج والبحث العلمي ، ان الاوضاع السياسية والحضارية في القاهرة ، كانت تختلف اختلافاً كلياً عما عهده في المغرب العربي . ومن ثم اصبح من المستبعد ان تعاوده رغبة العمل السياسي التي

استهلكت الجانب الاكبر من عمره . كما ان الطقس العلمي السائد ، ساعده على استثمار حصيلته العلمية ومضاعفتها ، مما جعله يعيد النظر في كثير مما كتبه قبل وصوله الى القاهرة .

بدأ ابن خلدون حياته في مصر ، بأن اتخذ من أروقة الجامع الازهر ، مدرسة يلتقي فيها بتلامذته ومريديه . وكان الازهر ، في ذلك الحين ، انسب معاهد العلم في القاهرة للدراسات العالية التي يتكلم فيها . ونتيجة لتمكنه العلمي ، وبراعته في الحديث ، تضاعف الاقبال على دروسه ، وفي هذا يقول تلميذه المؤرخ الشهير المقريزي « في هذا الشهر ، قدم شيخنا ابو زيد عبد الرحمن بن خلدون من بلاد المغرب ، وتصدى للاشتغال بالجامع الازهر ، فأقبل الناس عليه ، واعجبوا به » .

وقبل مقدم ابن خلدون بعشرة ايام ، ولي مصر السلطان الظاهر برقوق . وكانت قد وصلته اخبار ابن خلدون وشهرته ، فاكرم وفادته وعينه لتدريس الفقه المالكي ، وفي عام ١٣٨٤ م ( ٧٨٦ هـ ) غضب السلطان برقوق على قاضي القضاة المالكية ، فعزله وعين ابن خلدون مكانه .

والغريب ان منصب قاضي قضاة المالكية هذا ، كان الظاهرة الوحيدة التي تربط بين حياة ابن خلدون في القاهرة ، وحياته السابقة في المغرب . كان هذا المنصب مطمعاً للكثيرين من علماء مصر ، فتعرض ابن خلدون بسببه لكثير من الدسائس والوشايات ، وظل المنصب يتأرجح بينه وبين

خصومه ، يتولاه اذا انتصر عليهم ، ويتولاه احدهم اذا انتصروا عليه ، حتى انه تولى هذا المنصب وابعد عنه ثمانية مرات في نحو اربع سنين . ولقد ساعد على عزله من المنصب في اغلب المرات ، انه كان صارماً في عدالته ، يستوي امامه الكبير والفقير ، لا تأخذه في الحق لومة لائم . وحدث هذا في زمن ، كان يسود القضاء في مصر ، فساد وميل الى الاغراض ، فكانت صرامة ابن خلدون ، سبباً في اثارة السخط عليه من كل ناحية .

كان ابن خلدون ، عندما استقر به الحال في القاهرة ، قد توسل الى السلطان برقوق ، ان يشفع له لدى سلطان تونس في ارسال اسرته الى مصر ، وفعل ، فأطلق سراح الأسرة ، وركبت البحر الى مصر . ولم تكد السفينة تدخل ميناء الاسكندرية ، حتى اصابها ريح قاصف ، فغرقت بمن فيها . في لحظات قصيرة فقد ابن خلدون زوجته واولاده جميعاً ، فكان وقع المصاب عليه شديداً ، ورغب في ان يعتزل الحياة ، حتى يقضي ما بقي من عمره في هدوء .. الا ان القدر كان ما يزال يخبىء له في جعبته مزيداً من الاحداث .

في عام ١٣٨٨ م ( ٧٨٩ هـ ) اعتزم ابن خلدون اداء فريضة الحج ، فاستأذن من السلطان وسافر الى الاراضي المقدسة ، يؤدي فرضاً ، كان قد انتواه عندما بارح تونس . وعند عودته الى القاهرة ، اقتصر نشاطه على القاء الدروس على تلاميذه .

لم تؤثر على حياته حادثة خلع السلطان برقوق عن

العرش ولا عودته اليه ، ولا وفاة السلطان ، وتولي ابنه الناصر فرج .. فقد كان نشاطه العلمي والتعليمي متصلا ، ومنصب قاضي القضاة ما زال يتأرجح بينه وبين خصومه . وكل ما استجد على حياته في تلك الفترة ، هو سفره الى فلسطين لزيارة بيت المقدس ، ومشاهدة آثار هذه البلاد ، تلك الزيارة التي عاد منها عام ١٣٩٩ م ( ٨٠٢ هـ ) .

## تيمورلنك .. على الابواب

في عام ١٤٠٠ م ( ٨٠٣ هـــ ) ، وصلت الأنباء بأن الغازي التتري تيمورلنك ، قد وصل بجيوشه الى الشام ، واستولى على مدينة حلب ، فاستباحها ، واعمل فيها السفك والنهب والتخريب . وانه في طريقه الى دمشق . كانت الشام في ذلك الوقت تابعة لسلطان مصر . ففزع الناصر فرج ، واسرع بجيشه لصد الغازي . ورغم ان ابن خلدون كان قد قارب السبعين من عمره ، فقد اصطحبه السلطان ، فيمن اخذ من القضاة والفقهاء ... وما ان وصل جيش مصر الى الشام ، حتى اشتبك جند مصر مع جند الغازي في معركة ثبت فيها المصريون ، واوقف تقدم الغازي ، وبدأت المفاوضات لانسحاب الغازي تيمورلنك من الشام . غير ان السلطان علم

بتسلل بعض الامراء المصريين ، وعودتهم خفية الى القاهرة ، كما علم انهم يدبرون مؤامرة لخلعه ، فترك المفاوضات والحرب ، وعاد الى القاهرة متعجلا ، ليدركها قبل ان ينفذ الامراء خطتهم . وترك امر دمشق في ايدي قادة الجيش .

وبعد تشاور ، ادرك القادة العسكريون ، ان مقاومة تيمورلنك ، ستؤدي الى تدمير بمثل ما حدث في حلب ، واستقر رأيهم على المفاوضة ... وكان رسولهم الى تيمورلنك .. هو ابن خلدون . في فجر اليوم التالي قام الجند بربط ابن خلدون من وسطه بالحبال ، ثم دلوه من فوق سور مدينة دمشق ، الى خارج السور ، ليتلقاه جند تيمورلنك الذين كانوا يحاصرون المدينة . وكان على رأس مستقبليه نائب تيمورلنك ، « شاه ملك » الذي عينه تيمورلنك والياً على دمشق ، حتى قبل ان يتم له فتحها ، للتعبير عن ثقته في قدرة جيشه . هبط ابن خلدون من فوق السور ليجد هذا الاستقبال الحافل من جند تيمورلنك ، ووجدهم يقدمون اليه دابة يركبها ويقطع بها المسافة القصيرة بين سور دمشق ، ومعسكر تيمورلنك .

عندما يقترب الركب من مقر الغازي ، يأخذ ابن خلدون في التلفت حوله ، متطلعاً الى هذه المدينة المصغرة التي انشأها تيمورلنك من الخيام .. والتي تميزت في وسطها خيامه ، بما فيها من زركشة ونقوش ملونة ، وقد ارتفعت اعمدتها مكسوة برقائق الفضة . سمح لابن خلدون بالمثول بين يدي تيمورلنك . ثم استدعى من بطانته فقيها يسمى عبد الجبار بن النعمان ، فتولى الترجمة بينهما .. وبدأ الحوار

المتصل الذي استمر مدة اربعين يوماً ، وانقطع الحوار ، عندما اقبل على خيمة الغازي بعض فرسانه فرحين مهللين ، يعلنونه بان دمشق قد سقطت .

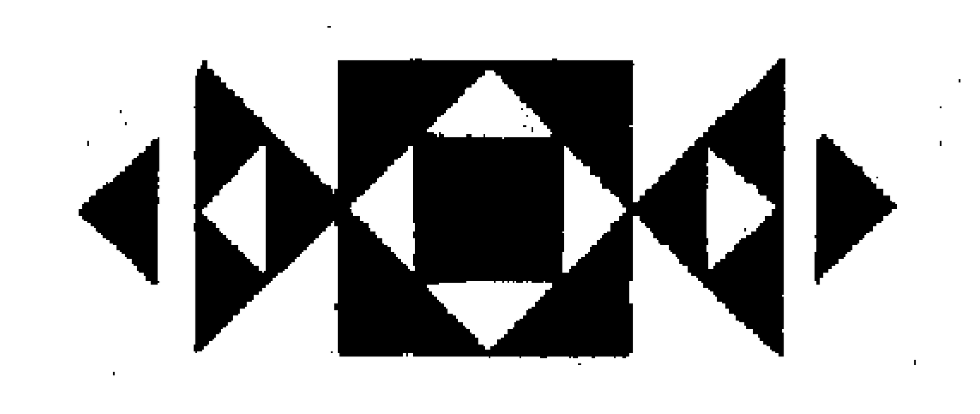
لم يجد ابن خلدون مبرراً لبقائه في دمشق بعد هذا ، فعاد الى القاهرة ، الا ان القدر كان قد وضع نهاية خاصة لهذه الرحلة الفاشلة ، ففي طريق العودة وبالقرب من مدينة صفد ، هاجم البدو القافلة ، وسلبوا كل ما فيها ومن بها ، وتركوا ابن خلدون وصحبه عراي لا يسترهم شيء . وسط مظاهر الغيظ والاسف والخجل ، التي شملت جميع من كان بالقافلة ، ارتسمت ابتسامة على وجه الشيخ ابن خلدون ، مما اثار دهشة الجميع . وتركهم الشيخ على حالهم ، فلم يخبرهم بان هذا الحادث اعاد الى ذاكرته ، حادثاً شبيهاً حصل بنفس التفاصيل ، وهو في الطريق الى مدينة فاس ، هارباً من بسكرة .

عاد ابن خلدون الى مصر ، يتسلى في آخر ايامه ، بتوليه منصب قاضي القضاة المالكية ثم عزله منه .. دون ان يبذل جهداً ، سواء في السعي اليه ، او الاحتفاظ به .. فقلبه كان قد تعب من فرط ما خفق .. وصور ما مر به من احداث تلاحقه ، حروب ودسائس وسجون ومطاردات .. مرة يرى نفسه في خير ملبس يتولى رئاسة الوزارة ، بكل ما يحيطها من نفوذ وابهة .. ومرة اخرى يرى نفسه عارياً بلا دابة او زاد ، يسوح في الصحراء الجزائرية باحثاً عن الطريق الى فاس ..

ومرة ثالثة يجد نفسه في سجن فاس يجتر آلامه ، ويصنع منها ابيات شعر .

وفي عام ١٤٠٦ م ( ٨٠٨ هـ ) ، آن للروح المصطخبة ، ان تهدأ ، وان تفارق الجسد الذي اعيته الخطوب والاحداث والسنين ، وان تصعد الى باريها . فوافته المنية وقد بلغ من العمر ٧٤ عاماً . ودفن ابن خلدون في مقبرة من مقابر الصوفية في باب النصر .. في القاهرة التي كتب ودرس وعلم فيها ، ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً .

بهذا ، انتهت حياة عالم جليل .. قدم للبشرية باجتهاده الشخصي ، علماً كاملا جديداً ... هو علم الاجتماع .



## من اعمال ابن خلدون

رغم ان ابن خلدون لم يؤلف الا في مادتي تخصصه ، وهما الاجتماع ، والتاريخ ، الا ان ما كتبه في الباب السادس من مقدمته عن العلوم ، واصنافها ، وما كتبه في الباب الاول عن الجغرافيا ، يكشف عن اطلاع واسع يمتد الى مختلف العلوم . كما يتضح ذلك ، مما كتبه عن علوم الدين وعلم الكلام ، وعلوم المنطق والالاهيات و الفلسفة والتصوف وعلم اللغة وآدابها . وبالاضافة الى ما كتبه عن العلوم الرياضية والطبيعية والطب والفلك .

ولم يصل من آثار ابن خلدون الا كتاب « العبر » وملحقه في التعريف بابن خلدون . لكن كتاب « الاحاطة في اخبار غرناطة » ، يقول ان ابن خلدون : شرح قصيدة البردة في مدح الرسول عليه السلام ، ولخص كثيراً من كتب الفيلسوف الاندلسي « ابن رشد » ، والف كتاباً في الحساب .

## علم الاجتماع :

وكتابات ابن خلدون في هذا المجال ، والتي اوقف عليها مقدمته ، تعتبر من اهم انجازاته ، ومن المع مظاهر عبقريته ، واليها ترجع شهرته التي ذاعت في الشرق والغرب .

لقد كشفت بحوث ابن خلدون في هذا المجال ، عن علم جديد لم يسبقه احد اليه ، كما انه توصل الى حقيقة لم ينتبه اليها احد من قبله ، وهي خضوع الظواهر والاحداث الاجتماعية لقوانين ثابتة تشبه القوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية . كما في علم الفلك والحيوان والنبات والطب .. وقد اطلق ابن خلدون على علم الاجتماع اسم « علم العمران البشري » .

ويدرك ابن خلدون أن اكتشافه هذا لم يسبقه اليه أحد ، فيقول ، « واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، غزير الفائدة ، أعثر عليه البحث ، وأدى اليه الغوص » .

ومن اهم الاسباب التي ادت بابن خلدون الى انشاء هذا العلم الجديد ، حرصه على تخليص البحوث التاريخية من الاخبار الكاذبة ، وعلى انشاء ادلة يستطيع بفضلها الباحثون في علم التاريخ ، ان يميزوا بين ما يحتمل الصدق ، وبين ما لا يمكن ان يكون صدقاً . وهو يرجع اعتناق المؤرخين للاخبار الكاذبة ، الى الهوى الشخصي للمؤرخ ، والى الرغبة

في التقرب من الحكام ، والى الجهل بالقوانين التي تخضع لها الطبيعة ، والقوانين التي تخضع لها ظواهر الاجتماع الانساني .

وكان ابن خلدون في اثباته لنظرياته الاجتماعية ، يتبع نفس ما يتبع في اثبات النظريات الهندسية . فهو يذكر المنطوق كعنوان للفصل ، ثم يقوم بالبرهنة عليه وامتحان سلامته في جميع الاحوال .



## علم التاريخ :

ولابن خلدون في كتاباته بحوث في التاريخ ، وخاصة تاريخ الامم العربية والبربرية .

ويعد تاريخ البربر الذي عرضه ابن خلدون في كتابه ، انفس الاقسام التاريخية في مؤلفه ، واوفرها طرافة ، واقواها تحقيقاً . ولذا يعتبر كتابه هذا ، اهم مرجع للباحثين في تاريخ هذه الدول والشعوب في العصور التي يتحدث عنها ، وقد نشرت له ترجمة فرنسية كاملة بالجزائر عام ١٨٥٢ ، ثم اعيد طبع هذه الترجمة في باريس عام ١٩٢٥ .

ويمتاز ابن خلدون عن اسلافه ، بعدم اعتماده على المؤرخين الخصوصيين ، ولا على وثائقهم ، ولا على ما يصله من الحكام الذين اتصل بهم ، نظراً لكثرة ما يدخل على هذه المصادر من زيف وتزوير . ولكنه تميز باعتماده على تجربته الشخصية ، عن طريق اختلاطه بالناس ، ومعايشتهم كمصدر هام من مصادره .

وكانت المعلومات التاريخية عند ابن خلدون ، هي المادة الخام ، يجري عليها تأمله ودراسته وتحقيقه ، لينقيها من الشوائب والمبالغات ، ثم يصنفها ويرتبها ، ويعيد تسجيلها بعيداً عن الهوى ، او الانفعال العاطفي .

ومما يتميز به ابن خلدون ، تأثره بالمنهج العلمي في

البحث التاريخي ، ولعل مرجع ذلك الى المعارف الرياضية التي بدأ بدراستها ، فساعدت على تنظيم تفكيره . لهذا كانت نظرته التاريخية شموليه غير ضيقة ، تدخل في الاعتبار كافة العوامل السياسية والاقتصادية والجغرافية والاجتماعية .

ولعل هذا هو ما دعا المؤرخ والمفكر ارنولد توينبي الى القول ، « ان نجم ابن خلدون يبدو اكثر تألقاً في كثافة الظلام .. ان ابن خلدون يبدو وحده نقطة الضوء الوحيدة في ذلك الافق . » وما دعا المؤرخ العالم الانجليزي جوردون تشايلد الى القول : « ان مقدمة ابن خلدون ، وآراءه في التاريخ ، قد استفاد منها الى ابعد حد ، كل مؤرخ قد تصدى لعلم التاريخ . وبصمات ابن خلدون تبدو واضحة ، على اوراق مئات الدراسات التي كتبت حول التاريخ ، وفي التاريخ »



## فن السيرة الشخصية :

ابن خلدون هو اول باحث عربي يكتب عن نفسه ترجمة رائعة مستفيضة ، يتحدث فيها عن تفاصيل ما جرى له ، وما احاط به من حوادث . من يوم نشأته الى قبيل مماته ، ويتحدث في ذلك بدقة المؤرخ الامين ، حتى في الامور التي يحرص الناس عادة على كتمانها ، لما تكشفه من نواقص او مثالب . يتضح هذا لكل من يقرأ الباب الذي اسماه ، « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » .



## اقوال رجال الغرب
## في فضل العرب

ــ « ان العـــرب هم في الواقع أساتذة أوروبا في جميع فروع المعرفة » .

**( العلامة سيديو )**

ــ « ان العلوم والحضارة والآداب ، مدينة بازدهارهـــا وانتشارها للعرب وحدهـــم ، طوال ستة قرون » .

**( الفيلســـوف ارنســـت رينان )**

ـ « ان كثيرا من الغربيين
لم يدركوا قيمة ما اقتبسوه من
الثقافة الاسلامية ، أو يفقهوا
حقيقة ما أخذوه من الحضارة
العربية في القرون الماضية » .
**( الفيلسوف رينيه جيبون )**

ـ « ان الميراث الذي تركه
اليونان ، لم يحسن الرومان
القيام به ، أما العرب ، فقد
أتقنوه ، وعملوا على تحسينه
وانمائه ، حتى سلموه الى
العصور الحديثة » .
**( البارون كارادي فو )**

ـ « ان الفضل أعظم
الفضل للعلماء العرب ، في
الحفاظ على التراث اليوناني ،
وتدوينه ، والتأليف فيه ، وان

العلماء العرب قد برعوا في ذلك ، وانهم تفوقوا على الاغريق ، بأن جعلوا العلم سهلا مستساغا ، فأقبل الناس على النهل منه ، وكانت ميزة انفرد بها العالم العربي » .

**( بونال )**

ـ « ان الخدمات التي اداها العرب للعلوم ، غير مقدرة حق قدرها من المؤرخين ، وان البحوث الحديثة قد دلت على عظم ديننا للعلماء المسلمين ، الذين نشروا نور العلم ، حينما كانت اوروبا غارقة في ظلمات القرون الوسطى ، وان العرب لم يقتصروا على نقل علوم الاغريق ، بل زادوا عليها ، وقاموا باضافات هامة » .

**( كاربنسكي )**

ـ « ان أعظم نشاط فكري قام به العرب ، يبدو جليا في حقل المعرفة التجريبية » .

**( فون كريمر )**

ـ « لولا العرب لتأخر عصر التجدد في اوروبا لعدة قرون فقد لمع العرب في كل الميادين العلمية ، وفي الوقت الذي كان فيه الشعراء والادباء والفقهاء يقومون بأدوارهم في نهضة العرب الروحية والنفسية والخلقية ، كان العلماء في كل الميادين يقومون بقسطهم في البحث والنقل والتجويد ، ولم يدعوا بابا الا طرقوه ، ان لم يكونوا قد فتحوا في العلم ابوابا جديدة » .

**( العالم ليبري )**

ـ « ان بعض الغربيين الذين تعمدوا أن يستخفوا بما أسداه الشرق الى العمران ،

يصرحون بان العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ، ولم يضيفوا اليها شيئا ما . هذا الرأي خطأ . لانه لو لم تنقل الينا كنوز اليونان لتوقف سير المدنية بضعة قرون . ان العرب لم ينسخوا من المصادر اليونانية والسنسكريتية نسخا ، ولكنهم جمعوا بين المصدرين ثم لقحوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية ، واذا لم يكن هذا الرأي الذي فعله العرب ابتكارا ، فليس في العلم اذن ابتكار على الاطلاق ، فالابتكار العلمي في الحقيقة ، هو حياكة خيوط المعرفة في نسيج واحد » .

**( مؤرخ العلم جورج سارتون )**

ــ « لو أزيل العرب من التاريخ ، لتأخرت النهضة

الاوروبية في اوروبا بضعة قرون فقد علمت الامة العربية الغرب ، بعد أن أيقظته خمسة قرون أو ستة ، وحتى أواخر القرن الثامن عشر ، كانت مؤلفات ابن سينا لا تزال تناقش في جامع مونبيلييه بفرنسا » .

( ديلاس أوليري )

ـ « كلما تعمق المرء في دراسة المدنية العربية ، تجلت له أمور جديدة ، واتسعت أمامه الآفاق ، وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الامم القديمة الا بواسطة العرب ، وأن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة تكتب للعرب خاصة ، وأن العرب هم الذين مدنوا أوروبا في المادة والعقل والخلق » .

( جوستاف لوبون )

## علماء العرب

تتناول هذه السلسلة بأسلوب شيّق ، وبعبارة واضحة ، حياة مشاهير العلماء من العرب الذين ساهموا في تقدم الحضارة ، وفتح آفاق جديدة في العلم والمعرفة أمام الإنسانية. والسلسلة ، باختصار ، غاية في الأهمية ، لأنها تقدم للجيل العربي الجديد الوجه الأصيل من تراث العرب الذي أفاد منه العالم أجمع ، وأثنى عليه الغرب قبل العرب أنفسهم .

### في هذه السلسلة

١ - ابن سينا
٢ - ابن الهيثم
٣ - الرازي
٤ - ابن خلدون
٥ - ابن بطوطة
٦ - الجاحظ
٧ - البيروني
٨ -




الثمن ٣ ل.ل.
أو ٣٠٠ فلس


المؤسسة العربية للدراسات والنشر
ص.ب ٥٤٦٠ - بيروت - لبنان